الحى اللاتينى *

لسهيل إدريس

قصة الحى اللاتينى ، قصة شاب لبنانى سافر إلى فرنسا ثم عاد ومعه الدكتوراه فى الأدب العربى . قصة شاب كانت المرأة – وهو فى الشرق – أخطر همومه . فأصبحت – بعد ذهابه إلى باريس – أحد همومه . قصة الصراع بين الأم والعشيقة ، الصراع بين الخضوع لتقاليد تتعارض مع سعادة الفرد ، وسعادة الفرد التى تتعارض مع هذه التقاليد ، فهى قصة المجتمع المتناقض ، وبالتالى قصة الفرد المعذب المنقسم على نفسه لأنه موزع بين مطالب مجتمعه ومطالب سعادته فى بيئة لا تستطيع أن تجعل من الاثنين كلاً واحدًا .

وتنقسم الرواية ثلاثة أقسام : فى القسم الأول نرى شابًا شرقيًا يسافر لأول مرة إلى باريس التى طالما كان يحلم بها ، وحين وضع قدمه فى العاصمة الفرنسية ، لم يكن همّه إلاّ هم الشاب المراهق الذى لا شاغل له إلاّ البحث عن المرأة بحثًا مصحوبًا بإشفاق وتهيب وخيبة ، فهو يقول محدثًا نفسه عن المرأة « لقد أتيت إلى باريس من أجلها . والآن أرأيت أنك كنت مخدوعًا فى نفسك ، ساعة كنت تتصور أنهن كثيرات ، كثيرات هنا ، وأنه يكفيك أن تسير فى الطريق ليتهافتن عليك ويحدثنك حديث الهوى » . [1]

وتمر صفحات هذا القسم الواحدة تلو الأخرى وأنت تبحث عبثًا عن اسم بطل الرواية ، فالبطل فى هذه القصة لا اسم له ، بل هو مجرد ضمير ، ضمير المتكلم أحيانًا وضمير المخاطب أحيانًا أخرى وضمير الغائب فى أغلب الأحايين . وها هو مثال يصف فيه المؤلف بطله وهو يحاول الاتصال بفتاة تجلس فى السينما بجواره « ونعم بالدفء الحقيقى ، وظلّ قابضًا على تلك اليد الحلوة الناعمة كأنها الكنز .. إنى لأشعر شعورًا غريبًا بأنى بدأت أحبّ هذه الفتاة التى لم

* أبريل ١٩٥٤ .

(١) سهيل إدريس : الحىّ اللاتينى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٣ ، ص ٢٣ .

أرها ، ولا أعلم من أمرها شيئًا . وفى غمرة من الاندفاع رفع يد الفتاة على مهل وانحنى بجسمه يودعها قبلةً محمومة هامسة .. انطلق ياصاحبى ، لقد كسبت المعركة [1] » . وهكذا نرى المؤلف يحوّم حول بطله متمتمًا بضمائر اللغة من غير أن يذكر اسمه ، حتى ليتساءل القارئ . ألا تكون الصلة قوية بين المؤلف وبطله بحيث لم يستطع أن يفصله عن ذاته فيعطيه وجودًا مستقلاً ؟ إن الجنين يظل بلا اسم حتى تلده الأم وينفصل عنها فتمنحه اسمه الخاص رمزًا لوجوده المستقل . وهذا مما يذكّرنا بفرانز كافكا فى قصصه ، فقد رمز لبطله بالحرف « ك » وهو أوّل حروف كافكا نفسه ، والمعروف لدى نقاد كافكا أن هناك مشابه كثيرة بين الظروف التى كان يعيش فيها وبين العالم الذى خلقه لأبطال قصصه . كما أنه يذكّرنا من جديد ببعض القدماء الذين كانوا لا يستطيعون أن يذكروا اسم آلهتهم صراحةً بل يشيرون إليها بالرمز أو الضمير فحسب . إن عدم وجود اسم لبطل الحىّ اللاتينى يجعلنا نحس فى بدء تعرفنا على القصة كأنما نحن أمام تأريخ شخصى ، لم يجرؤ صاحبه على أن يعترف باسمه صراحةً ولا هان عليه أن يهبه اسمًا آخر فيجعله غريبًا عنه ، فتركه يتأرجح بين هذه الضمائر الثلاثة ، فهو تارة منه وهو تارة يدفعه بعيدًا عنه إلى عالم الغائب وهو تارةً ثالثة يوجه الحديث إلى نفسه بضمير المخاطب .

وبطلنا فى هذا القسم يمرّ بتجارب كثيرة قصيرة متجهًا نحو النضج ، فهو يغتصب ميعادًا من تلك الآنسة التى جلست إلى جانبه فى السينما ولا يعرفها وينتظرها فى اليوم التالى فلا تأتى ، ثم هناك ليليان صديقة صديقه الذى رحل ، وقد أفهمته أوّلاً أن الأمر لا يعدو صداقةً بينهما ، وبعد ساعات أعطته جسدها ، ثم اكتشف بعد ما غادرته أنها سرقت نقوده كما سرقت الشّعر الذى كانت تقرؤه له مدعيةً أنه من تأليفها . ثم مارجريت التى تعطيه جسدها ثم ما تلبث أن تنفر منه وهو ينظر إليها فى بلاهة .. وهناك أمه . هناك فى بيروت ، تبعث إليه قائلةً « أعود فأحذرك يابنى من نساء باريس .. وقاك الله شر بنات الحرام [2] » هذا هو النذير الذى يظلّ يعلو ويعلو حتى مايلبث أن ينشر المأساة على أحداث المستقبل .

ويتذكّر « ناهدة » عروسه المزعومة فى وطنه . ومن تحذير أمه وصورة ناهدة يتكون جانب من جانبى الصراع الذى يكون فى القصة عنصر الدرام .

فى هذه الفترة تعرّف بطلنا على فؤاد الذى قيل فى وصفه فيما بعد « إن شخصيته تدعو إلى

(١) الحىّ اللاتينى ص ٣٢ .
(٢) الحىّ اللاتينى ص ٧٩ .

التأمل ، وأنا أعتقد أنها شديدة الغنى بإمكانياتها » [1] . وقد أحبه بطلنا واحترمه وتمنى أن « يبقى له فؤاد صديقًا أبد الدهر » [2] . وفؤاد هذا هو الذى قال لبطلنا إن المرأة كانت همّه الأوّل يوم وصل إلى باريس ، ولكنها أصبحت فيما بعد أحد همومه فقط . وكانت له صديقة اسمها فرانسواز دائم الخلاف معها بسبب اختلافها حول سياسة فرنسا نحو مستعمراتها . كما تعرّف إلى تريز خادمة الفندق الطيبة التى تمثل جانب الحياة الطيب الذى لا يعطى ليأخذ بل يحب دائمًا أن يبتسم ، لأن هذه هى طبيعته رغم مشاكله الشخصية ومشاكل الذين حوله .

أما القسم الثانى ففيه يَعْبُر البطل من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الحب الناضج .. حب جانين منترو تلك الفتاة الألزاسية التى تفهم الشرف على نحو مغاير لما تفهمه الفتاة الشرقية [3] فالشرف عندها هو « الإخلاص » وليس المحافظة على بكارتها . لقد رأت خطيبها يخونها وهما لايزالان خطيبين ، فماذا يفعل معها بعد الزواج ؟ ولهذا قررت رفضه رغم اعتذاره وإلحاحه . وفى باريس أعطت روحها وجسدها « للعربى » – كما حلا لها أن تلقّبه – ليحصل معها على الحب المتكامل ، لأوّل مرة [4] . وكان من قبل يحصل عليه فى الشرق محرومًا من أحد شقيه . فلم يتذوّق الحب الكامل أبدًا ، إما عاطفة محرومة من الجسد ، وإما جسد محروم من العاطفة . أما الآن فهو يشاركها فى الجسد والعاطفة والثقافة .

وهنا – وفى غمرة هذا الصراع – نجد وجه أمه يطلّ عليه من جديد ، فخطاباتها ترد إليه وهو لا يستطيع أن يصارحها ، لأنها لاتقرّه على شىء من هذا . وهو الآن يريد أن يكون مستقلا عن أسرته تمامًا ، فقد كان كلّ سرٍّ مباحًا لهم . أما الآن فيجب أن يتصرف وحده . إنه يجاهد فى المعركة لكى يخرج عن روابط أسرته التى تشدّه وتقف عقبةً فى سبيل سعادته .

ولقد سافرت جانين إلى خالتها المتزوجة فى إحدى مقاطعات فرنسا ثم عادت غاضبةً لتنسى غضبها بين أحضان حبيبها ، وبدأت مواردها المالية تنضب ، فعملت بائعةً فى فرع لثياب الأطفال بأحد المحلات التجارية ، وكان عليها إما أن تنقطع عن مقابلة حبيبها وإما أن تنقطع عن دراستها للصحافة ، لأنها حاولت أن تجمع بينهما إلى جانب العمل فأنهكت قواها ، وقد اختارت الانقطاع عن دراستها .

ولقد سألته ذات يوم قائلة « من أنا فى حياتك ، وهل أكون غير طيف عابر ؟ » فأجابها

---

(1) الحىّ اللاتينى ص ١٦٤ .

(2) الحىّ اللاتينى ص ٩٣ .

(3) الحىّ اللاتينى ص ١٨٢ .

(4) الحىّ اللاتينى ص ١٥٩ .

«وأنا أيضا ينبغي ألا أكون فى حياتك ياجانين غير طيف عابر [1] » . ولكن هل حقًا يمكن لشخصين ارتبطت حياتهما معًا كلّ هذا الارتباط أن يصبحا طيفين عابرين بالنسبة لبعضهما ؟ وهكذا بدأ يطرح على نفسه قضية زواجها « يتزوجها ؟ أية كلمة مخيفة هى ؟ وسرعان ما طفرت إلى ذهنه صورة أمه . وأحس بضيق شديد يأخذ بخناقه . ينبغى أن ينحيها الآن على الأقل ، هذه الفكرة الكابوس . ينبغى ألا يبقى وحده ، مع أمه [2] » .

وهكذا نجد وجه أمه يطلّ حين يفكر فى علاقته بجانين ، فهو مؤمن بأمه ، وهى متغلغلة فى أعماقه ، وإن فصلتها آلاف الأميال . أما جانين فمضت تقول له : « لقد طبعتنى بطابعك وسأظل أبدًا أسيرة قيودك . إن مصيرى قد تقرر منذ رأيتك . لم تبق لى إرادة ، وسأجرى مع الزمن كما سيتقاذفنى الزمن [3] . وحين ذكر أمامها أنه غائب عنها ذات يوم أجابت قائلة « إذن أية فتاة ضائعة سأكون [4] » . وأشارت ذات مرة إلى فتيات الشوارع قائلةً إنهن سعيدات ، لأنهن «يعشن كل يوم على حدة ، كل يوم بيومه لا يفكرن ، أجل لا يفكرن بالغد .. [5] » ، ومن قبل كانت قد قالت له « سامحنى أيها الحبيب . إنس الذى قلته لك عن الغد .. عن المستقبل . أنا أيضًا سأحاول أن أنساه [6] » . وكأن الكاتب يمهد لنا بذلك إلى المصير الذى كان قد تقرر لجانين مونترو ملخصًا فى هذه الكلمات .. الضياع ، فتيات الشوارع ، عدم التفكير فى الغد .

أما فى القسم الثالث فتبلغ المأساة قمتها عن طريقين ، أحدهما يمهد للآخر . فبطلنا قد عاد إلى بيروت فى إجازة قصيرة ، وبذلك واجه أمه وجهًا لوجه ، فتجسّد عامل المنع وأصبح بدوره هو « الحاضر » بعد أن كان مجرد ذكرى وكلمات فى رسائل يمكن دفعها بعيدًا . أما جانين فقد أخذت هى بدورها تصبح مجرد ذكرى ، مجرد كلمات فى رسائل ، وبهذا توازن الموقف وبلغ الصراع أوجه فى نفسية بطلنا ، فالسفر هنا من باريس إلى بيروت هو عودة من عالم العشيقة إلى عالم الأم . من العالم الذى حقق فيه الفرد وجوده كله .. غريزته وعاطفته وعقله ، إلى العالم الذى ينمحى فيه الفرد فى المحيط الاجتماعى الكبير .. الأسرة أحيانًا والوطن أحيانًا أخرى والشرق بمشاكله أحيانًا ثالثة . « لنترك باريس وأهل باريس .. أريد أن أعيش معكم

---

(1) الحىّ اللاتينى ص ١٨٠ .

(2) الحىّ اللاتينى ص ١٨٣ .

(3) الحىّ اللاتينى ص ١٩٨ .

(4) الحىّ اللاتينى ص ٢٠١ .

(5) الحىّ اللاتينى ص ٢٠٦ .

(6) الحىّ اللاتينى ص ١٨٤ .

الآن ، معك أنت يا أمى .. حدثينى [1] » . وفى وسط هذا الصراع تطفو ناهدة من جديد ، وناهدة هى الحلّ الذى تقدمه التقاليد أو المجتمع أو الأنا الأعلى ليصرف البطل عن خروجه عليه . هى الرشوة التى يقدمها له لكى يندمج من جديد فى مجتمعه وينسى فرديته . وهو يرفض ناهدة ، ذلك الرمز الذى يقدمه له مجتمعه لكى يخضع له بخضوعه لها ، إنه يرفض هذا الخضوع الرمزى الظاهرى . ولهذا فبطلنا ممزق هنا ، لأنه ابن عاق فى الظاهر ، وهو خاضع فى أعماقه . وفى صفحات رائعة يصور لنا المؤلف موقف الفتاة الشرقية « ثم رآها تتراجع فجأة وفى عينيها اثارة من خوف .. ولايدرى أى عالم انفتح له فى هذه الخطوة المتراجعة ، لقد رأى الفتاة الشرقية ، الفتاة العربية ، تتراجع أمام الشاب ، أى شاب عربيًّا كان أم أجنبيًّا ، أمام الرجل ، وعيناها طافحتان بالخوف منه . رواسب الخوف تجمعت أجيالاً فى هذه الخطوة [2] . » ثم صوّر تصويرًا لا يقل روعةً موقف الفتاة الشرقية المحرومة التى تخاف جسدها وتخاف الرجل الذى يفجر فيها هذا الجسد . وصوّر — فى سخرية مريرة — كيف رفضت ناهدة قراءة مسرحية لبول سارتر لأن عنوانها « المومس » وهى تخشى أن يرى والدها هذا العنوان فيظن بها الظنون .

أما أخته هدى فحاولت أن تقف موقفًا وسطًا بين مجتمعه وسعادته ، فهى حين تستعرض صور جانين تطرى جمالها ، ولكن حين رأت صورة أخيها يقبل جانين قذفت بالصورة فى وجهه ، فهى مستعدة أن توافقه ولكن إلى حين فقط ، إلى حين وليس إلى النهاية أبدًا ، وما لبث أن نظر إلى أخته قائلا « بلى ياعزيزتى . كم أنت مشوقة إلى مثل هذه الضمة ، كم تحلمين بشفتى رجل تلتصقان بشفتيك ياهدى المسكينة [3] » . وهكذا يحاول بطلنا أن يشرك معه أخته فى ثورته وتحقيق وجوده المستقل عن مجتمعه . وما لبثت هدى أن ردّت عليه قائلةً « لا بأس عليك يا أخى .. ولكن حذار أن تطلع أمك على شىء من ذلك . يخيّل إلى أحيانًا أن نفسها قابلة للحسد » وهكذا عبّرت لنا هدى عن موقف المجتمع الشرقى إزاء سعادة أى فرد فيه ، فهو ليس موقف الفرح ، بل هو « الحسد » . وهكذا كانت عودته لأمه هى التمهيد الضرورى للخطوة التالية التى بلغت بها المأساة قمتها ، فعندما تتوازن القوى المتعارضة يبلغ الدرام ذروته ويؤذن إذ ذاك بضرورة تغلّب أحد الجانبين المتصارعين . ولقد جاءت الخطوة التالية ، فى رسالة بعثت بها جانين من باريس إلى بطلنا ببيروت تقول له فيها : « لقد قصدت

(١) الحىّ اللاتينى ص ٢١٩ .

(٢) الحىّ اللاتينى ص ٢٢٤ .

(٣) الحىّ اللاتينى ص ٢٣٩ .

الطبيب أمس . فأبلغني أني سأصبح أما . إنها ثمرة حبنا يا حبيبي . ولست أدرى ما ينبغي لى أن أفعله . لكنى أنتظر منك إشارةً لأننى لا أملك وحدى أن أتخذ قرارًا ما . فماذا أفعل ياحبيبي ؟ » [١] .

هناك وجدت الأم ، التقاليد ، الضمير الاجتماعي ، فرصتها الذهبية .. لقد بلغ الصراع ذروته ، وكان الجانب المكافح المناضل يُمتحن امتحانًا شديدًا عسيرًا « انظر أي مأزق أوقعت فيه نفسك ، وأوقعتنا ؟ [٢] » هكذا قالت له أمه .

وهو الآن يعيش مع أمه ومع التقاليد التى نما فيها وشرب منها ، ولم تكن جانين الآن سوى مجرد إزعاج للأم والتقاليد التى تكوّنه وتكوّن مجتمعه ، فعليه أن ينحيها جانبًا حتى يحصل على شيء من الانسجام مع الوسط الذى يكوّن حاضره « وشعر بأنه معزول عن كل شيء ، خارج من كل شيء [٣] » . واتضح له فجأةً أن جانين ليست بكرًا ، وأنها من غير دينه وأنها تشتغل فى مخزن – وكأن أهله قد رفضوا من قبل أن تشتغل أخته هدى بالتدريس وكان هو ممن أيدوا هذا الرفض – وأنها فتاة أجنبية ، بل فرنسية بالذات ولقد عرف فرنسيات كثيرات اختلس معهن لذةً عارضةً ثم مضى ومضين لشئونهن « فدخل غرفته ، وأغلق خلفه الباب ، وجلس إلى طاولته . وحين أمسك القلم ليكتب شعر بأن وجه أمه ، ذلك الوجه المتجعد الهادئ ، المحنك الرزين ، يقف فوق رأسه . لم يعرف إن كانت أمه قد لحقت به حقًّا ، ووقفت فوقه جسمًا يلمس ، أم أنه قد حمل معه هذه الرؤية إلى غرفته . وأيًّا ما كان فقد رأى ، وهو يكتب تلك الرسالة ، ظلّ ذلك الرأس ، رأس أمه يهتز هادئًا ، موافقًا تارةً ومعارضًا تارةً أخرى ، حتى أنجز كتابة هذه السطور [٤] » .

وهكذا انكشف تمامًا الدور الذى تقوم به الأم خلال القصة كلها . أما ما كتبه فكان تبرؤًا من مسئوليته تجاه جانين بعد أن نبهته أمه إلى أن « كل ما قد يكتبه فى هذا الشأن يمكن أن يسجل عليه وثيقة تدينه لو شاءت هى أن ترفع أمرها إلى القضاء . ولقد زاد هذا فى رعبه وترويعه [٥] » . وهكذا انتصرت الأم والتقاليد والضمير الاجتماعي .

وكان لهذه الخطوة ردّ فعلها الطبيعي . إنه يحنّ من جديد إلى الأرض التى حقق فيها وجوده

---

(١) الحىّ اللاتينى ص ٢٤٢ .
(٢) الحىّ اللاتينى ص ٢٤١ .
(٣) الحىّ اللاتينى ص ٢٤٣ .
(٤) الحىّ اللاتينى ص ٢٤٦ .
(٥) الحىّ اللاتينى ص ٢٤٩ .

ردحًا من الزمان . إنه يحسّ الآن أنه فى المنفى ، وأن سجّانه لم يكن إلا أمه . لماذا يحب أمه ، لماذا يحس هذا التعلق الشديد بها ؟ لأنها فقط هى التى وضعته فى هذه الدنيا ؟ لأنها هى التى سهرت على طفولته وحداثته ؟ لأنها تقضى لياليها كلّها وهى إلى جانبه ، فى غرفة مجاورة ؟ ولكن إلام يظلّ حبّها من أجل هذا فقط ؟ لا ، لقد بلغ الآن مبلغًا ينبغى له ألا يأبه كثيرًا لهذا الحب الذى هو أشبه بالعطف وأقرب ما يكون إلى الاعتراف بالجميل . وإنه ليدرك شيئًا فشيئًا أنه يفتقر من هذا الكائن الذى يكنّ له ذلك اللون من الشعور إلى رابطة أخرى كفيلة وحدها بأن تكسب حبّه إياه معنى ساميًا ، معنى إنسانيًّا .. « اعترف الآن بأنك لم ترمض قواك إلا لتخرج بأن هذا الذى يشدك الآن إلى أمك ليس هو الحب وإنما هو الخشية ، الخشية من أن تشعر بأنك تسيء إليها إذا سلكت هذا المسلك أو تصرفت ذلك التصرف . وأنها الرغبة فى أن ترضيها ، فى أن تردَ لها الجميل الذى أنت مدين لها به ، أيًّا ما كان الثمن الذى تدفعه [1] » إن الصراع إذن بين شخص يخشاه بطلنا وشخص يحبه ، بين تقاليد يخشاها وبين حرية يحبها . « هو على يقين الآن من أن أمه قد استغلّت فيه ضعفه هذا ، حبّه إيّاها أو خشيته منها ، لتملى عليه الموقف الذى ترتئيه هى ، من قضية جانين ، وهى قضيته وحده . إن أمه لم تدع له أن يفكر فى أمره وينفذ منه إلى الحلّ الذى يراه هو . إنها بذلك قد محت شخصيته ، حطّمت ذاته وفرضت عليه شخصها هى ، وذاتها هى ، فأىّ عبد كنت لها وأىّ ذليل » . وهكذا ثار بطلنا – فيما بينه وبين نفسه فقط – ليكفر عن « الفعل » الذى اتخذه ، فهو لم ينقل هذه الثورة إلى حيز الفعل ، فيبرق إلى جانين بما يفيد اعترافه الضمنى بمسئوليته فيما حدث ، كلاّ ، بل ثار فيما بينه وبين نفسه فقط . أما فى حركته فى العالم الخارجى فقد ظلّ « العبد الذليل » كما حلا له أن يصف نفسه . ولم تكن محاولته أن يلعب الروليت إلاّ لونًا من ألوان هذه الثورة التى هدفها إخفات الصراع الحقيقى بدلاً من أن تكون لحسمه وحلّه ، ولم يكن تخيله لانتحار جانين إلاّ الرغبة اللاشعورية الدفينة للتخلّص من الموقف على حساب عشيقته ، ولم يكن ذهابه للسباحة والشمس إلاّ أشبه بتصرف النعامة التى تقول عنها الخرافة إنها تخفى رأسها فى الرمال حين تتعب من العدْو وتريد فى واقع الأمر أن تستسلم لصياديها .

ولقد عاد إلى باريس ، ومن جديد أصبحت أمه وتقاليد بلدها مجرد ذكرى ، وأصبحت باريس حاضره . فالانتقال يرمز مرةً أخرى إلى محاولة التخلص من سيطرة جانب من جوانب

(١) الحىّ اللاتينى ص ٣٤٨ . (٢) الحىّ اللاتينى ص ٢٤٩ .

النفس ليتغلب جانب آخر . ولكن الأم ، كانت قد تغلبت نهائيًّا على الجانب المضاد حتى ولو أصبحت مجرد ذكرى . فجانين قد تركت مستشفاها الذى أجهضت فيه قبل وصوله بيوم واحد ، وهى لم تعد إلى فندقها . وفى هذه الأثناء يأخذ اهتمام بطلنا وأصحابه يزداد بالقضايا الوطنية كأنما يجد فى ذلك الوسيلة الحقيقة لمكافحة التأخر فى مجتمعه ، فهو لن يكافحه بفتاة . فيؤلفون رابطةً اسمها رابطة الطلاب العرب فى باريس ويتعرضون لمعارضة البعض لهم ، كما يأخذ اهتمامه يزداد برسالته التى يتمها ويناقشها بنجاح . وأخيرًا التقى بها فى حىّ الوجوديين وفى كهف من كهوفهم ، ولكن بعد أن كانت قد أصبحت فتاةً « ضائعة » . إذن لقد أصبحت ملوثة ، ولكن أليس هو أيضا ملوثًا مثلها ؟ ويحاول لأول مرة أن يحول ندمه الظاهرى إلى فعل حقيقى ، ولكن الوقت قد تأخر . إن جانين التى رفضت من قبل ندم خطيبها هنرى ولم تغفر له خيانته رغم غموض مستقبلها بدونه ، كانت منطقيةً مع نفسها حين رفضت ندم بطلنا العربى رغم ضياعها ضياعًا تامًّا بدونه . لقد اصطحبها إلى فندقها الحقير الذى تعيش فيه وتركها على أن يلتقيا ظهرًا ، لكنه حين عاد لم يجدها ووجد منها رسالةً فيها تقول « لعل نصيبًا من التبعة يقع على عاتق القدر ، الذى جعلك تصل إلى باريس متأخرًا يومًا واحدًا عن الموعد الذى كان بالإمكان إمساكى فيه دون السقوط فى الهاوية » . ولكن هل كان للقدر حقًّا أىّ دخل فيما حدث ؟ إن عدم تدخل الصدفة فى هذه الرواية هو عامل من عوامل تماسكها الحقيقى . ولسنا نعتقد أن هذا التأخر قد قرر شيئًا جديدًا فى مصير بطلى القصة . فلقد كتبت إليه تقول « إنك الآن تبدأ النضال ، أما أنا فقد فرغت منه ، ومات حسّ النضال فى نفسى . لقد عجزت أن أقاوم أطول ممّا قاومْت فسقطتُ ضعيفةً مهيضة الجناح . أما أنت فقد قرأت فى عينيك أمس استعدادًا طويلاً جدًّا للمقاومة والصراع .. لقد وجدْت أنت نفسك ، بينما أضعْتُ أنا نفسى .. عد أنت يا حبيبى إلى شرقك البعيد الذى ينتظرك ، ويحتاج إلى شبابك ونضالك » .

وهكذا استطاع سهيل إدريس أن يجعل النفس الإنسانية مسرحًا لصراع بين بيروت وباريس ، بين الشرق والغرب . وفى غمرة الصراع بين الأم والعشيقة ، فقد بطلنا الزوجة ولكنه حصل على الدكتوراه . أتراه يستطيع بهذه الدكتوراه أن يصلح بين الأم والعشيقة ليحصل على الزوجة ؟ هل تراه يستطيع بهذه الدكتوراه أن يصلح بين الشرق والغرب لكى يحصل – ونحصل نحن معه – على السلام ؟ فلا ننسى أن الغرب فى قصة الحىّ اللاتينى لم يكن مبعث الثقافة والحرية فحسب بل ومبعث الاستعمار أيضًا . ولقد انفصل فؤاد – هذا الشخص

الذى احترمه بطلنا لقوة شخصيته وإيمانه بمبادئه – قد انفصل عن عشيقته فرانسواز بسبب اشتداد اختلافهما حول سياسة فرنسا فى تونس . ولكن لئن كانت صديقة فؤاد تمثل الجانب الاستعمارى فى الغرب ، فإن صديقة بطلنا العربى تمثل الجانب الشعبى فى الغرب الذى يحب حريتنا ويحب نضالنا من أجل الحرية . الجانب الذى « يضيع » إذا نحن تخلينا عن تأييده لنا ، كما تخلّى بطلنا عن جانين مونترو فضاعت . ولكن أتراه حقًّا يضيع ؟